يوم فى نيويورك . . .

[فى إبريل الماضى رحل الكاتب إلى أمريكا تقله إحدى الطائرات . وهو فى هذا المقال يصور مشاهداته ويسجل خواطره فى اليوم الأول . يوم هبطت به الطائرة فى نيويورك . . .]

. . . تركنا الطائرة مهرولين .

واجتزنا ممشى مظللا كأنه عريش بستان ، ثم بلغنا مبنى المطار : حُجَر وممرات تمتاز بالطابع الأمريكىّ ، ساذجة فى جمالها وحسن تنسيقها . . . وحللنا حجرة ليست بالفسيحة ننتظر ، وتفرق فى جوانبها الرفاق جماعات شغلت كل منها بشأنها ، ولبثنا ننتظر ، وطال علينا الأمد ، فلُذنا بسلاحنا الماضى الكريم : الثرثرة ننفى بها عن نفوسنا ملل الانتظار .

وكان يمر من بيننا أمريكىّ قمىء من موظفى المطار ، يخطو بين الجماعات خطاً متزنة ، غير موجه نظره إلى أحد ، ولا يكاد يطويه الباب حتى يعود ثانية يذرع الحجرة ويجوس خلالها لا يعنيه من أمرنا شىء . وكان كلما ظهر تعلقت به أنظارنا تستنجده . وظل بين جيئة وذهاب على نحو أثار السخط والعجب . أفى شغل عنا هو حقا ؟ إن بين هؤلاء الموظفين من يُشبع بمثل تلك المظاهر الكاذبة رغبات نفسه الطموح !

وأخيراً تعالى صوت ينادى أسماءنا . . .

ومثلنا لحظات قصيرة أمام الطبيب ، ذلك الفتى الفارع ، المشرق الوجه ، يؤنسنا بابتسامة ترحيب ، ويعفينا من مضايقات الفحص والسؤال . . .

وتجمعنا فى مقصف على الأسلوب الأمريكى أنيق رشيق ، تبلّغنا فيه بأشتات من الشطائر والفطائر ، واحتسينا أقداح القهوة . . .

وتمت إجراءات « الجمرك » على أيسر وجه ، حتى إنى راجعت نفسى فى أمر هذه المؤسسة ، وبدا لى أنها مؤسسة عظيمة جليلة الفائدة والنفع !

وانصرفنا عن «الجمرك» خلفنا الزنوج يحملون حقائب المتاع ، وركبنا سيارة أجرة ذكرتنا بفخامتها وأناقتها عربة الخيل التى طافت بنا أحياء باريس . . .

« وبضدها تتميز الأشياء » !

وأحسست مشاعرى تهتز وتهتاج اهتياج مشاعر الطفل أمام جديد مستور بدأ يتكشف له .

وثارت بى ثورة تطلع وفضول ، فكنت أبعثر النظرات حولى فى تعجل أخشى أن يفلت منى شئ ، فإذا بى يَنِدّ عن نظرى أعظم شئ . . . إنها رقعة من الأرض شاسعة ، خُطّت فيها طرق ممدودة معبّدة تنتهبها السيارات انتهابا ، وإنها جسور عظيمة تعلو بنا وتهبط ، تتقاذفنا جسراً بعد جسر . ولكن أية جسور هذه ؟ أعلى الماء هى أم على أديم الأرض ؟ لا أكاد أتبين الأمر !

وبدأنا ندخل منطقة المبانى ، فكلما أوغلنا فيها تكاثفت وتعالت . . . ورأينا الطرق تزدحم بالسابلة ، فأخذت سيارتنا تهدئ من سيرها ، حتى ألفينا أنفسنا بين نواطح السحاب . وخُيِّل إلىّ أننا فى سفينة بدأت تجتاز خليجاً تقوم على جانبيه شوامخ الجبال !

إنه حقّا لشعور غريب ، ذلك الذى يستولى على المرء حين يشرئب بعنقه وهو يمر بين هذه الصروح الشاهقة . . . إن المرء ليحس نفسه قد تصاغر وتكمّش أمام تلك المدنيّة الماردة العاتية . . . فى لحظة واحدة تتجلّى لنفسك عظمة أمريكا الجبارة . . . هذه الآطام العالية تركّز لك فى مظهرها حقيقة « أمريكا » بمدنيّتها ، ثروتها ، عقليتها ، نشاطها ، جاهها ، طموحها ، ماظهر من ذلك كله وما بطن . . . هذه الآطام كأهرام مصر تختزل لك فى مظهرها الرائع مدنية مصر الغابرة . . . إنها لتصور لك فى لحظة دقائق تلك المدنية وأسرارها ، فتعلم جليّا أن القبر كان كل شئ فى مصر السحيقة ، فهو مستودع العلم والفن ونظام الحكم : الحى يعمل جاهداً فى إعداده دار قرار ، والميت ينعم به مثوى حتى تحين ساعة البعث والخلاص . . .

ما أروع الحجارة الصامتة فى الإبانة والافصاح !

إنها باقيه على الدهر ؛ إذا استلهمنا منها معالم الماضى فقد أمِنَّا الزلل والعثار فى تمثُّل حياة الأقدمين . إنها لتكشف أدق خوالج النفس البشرية ظاهرها الواضح وباطنها الدفين !

هذه نواطح السحاب بقوامها الفارع تستعلى ولا تنى تستعلى ؛ فهى تفصح لك عن مركَّب النقص فى النفس الأمريكية تكمن فيها نزعة تلك الأمة الفتيَّة الناهضة التى أصابت ثروة واقتداراً ومكانة لاتزاحمها فيها أمة أخرى على بساط المعمور . . . نزعة كأنها تريد أن تصرخ قائلة للملأ :

— لستُ إلا أمة عظيمة زعيمة !

إنها لتحس أنظار البريطانيين مازالت ترمقها بنظرة إشفاق لا تخلو من حسد ، نظرة الوصى الذى نفض يده من الوصاية على قاصره الذى بلغ سن الرشد ، ذلك القاصر الذى ما فتىء يذكر لوصيّه ضروبا من القسوة والحرمان يعلو بهامته اليوم متحديا ، يريد أن يمد قامته ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ليثبت أنه اصبح ندّا قويًّا لوصيّه فى الزمن السالف !

على أن الأمريكى والإنجليزىّ على الرغم مما بينهما من تنافس وتسابق ، تصل بينهما وشائج وثيقة من لغة وعقلية وجنس ؛ فهما فى المحنة يتساندان ويتآزران ، ينسى كل منهما عهد الوصاية وما يدور حول تركتها من حزازات وأضغان !

وأثارنى عن تأملاتى وقفة السيارة . . .

لقد بلغنا باب الفندق .

ودلفنا إلى الردهة الكبرى . وكان علينا أن نلبث حتى نتَبيَّن أمر الحجرة التى أُعدت لنزولنا . ووقفت أتأمل الردهة المضاءة بالكهرباء ومن يختلف إليها من الناس .

وراعتنى المصاعد لا تهدأ لها حركة ؛ فهى دائبة الصعود والهبوط ، لاتكاد تفرغ حمولتها حتى تغص بحمولة أخرى من تلك البضاعة البشرية الرائجة السوق فى هذا المكان . . .

وأخذت عينى ركناً رشيقاً ينيره ضوء جذّاب ، تمثَّل لى مسرحاً يستهوى أعين النظارة ، فتدانيت منه ، فتبيَّن لى أنه حانوت حوى طرفاً من كل شىء . . . إنه سوق مصغّرة تسعف كل طالب بما يطلب : فمن لفائف تبغ ، إلى كتب وصحف ، إلى حلوى أفانين ، إلى لعَب وتحف وطرائف . فقصدت إلى معرض

الكتب أقلب فيه البصر . وما هى إلا أن بدا لى رجل فى مقتبل العمر ، باش المحيا ، وديع النظرات . فبادرنى بقوله :

— طاب يومك يا سيدى . . . يلوح لى أنكم من نزلاء الفندق الجدد .

— قد منا الساعة .

— أأول زورة هى لنيويورك ؟

— إنها أول زورة لأمريكا كلها . . .

— من أى المواطن أنتم قادمون ؟

— من القاهرة .

— حقاً إنها لشقة بعيدة قطعتموها . . .

— لم تستغرق رحلتنا أكثر من ثمان وأربعين ساعة .

فأخذ الرجل يحملق فينا دهشا ، ثم مالبث أن ابتسم قائلا :

— إنها لإحدى معجزات الطيران . . . أرجو لكم إقامة طيبة .

— نشكر لك .

— لقد أحسنتم اختيار الفندق حقا .

— إنه اختيار صديق كريم ، حجز لنا أماكننا فيه .

— لقد كفاكم مؤنة البحث ومتاعب الاختيار . يتعذر أن يجد القادم سعة فى فنادق نيويورك على كثرتها . . .

وتلفتُّ أردّد البصر حولى فى الردهة ، فعاجلنى الرجل بقوله :

— إنه فندق مُريح على صغره . . . ست عشرة طبقة تحوى أربعمائة حجرة .

— أصغير هذا ؟

— إذا قيس بكبريات الفنادق . . . ولكن موقعه يجعله ممتازاً ؛ إنكم فى الشارع الخامس والأربعين ، قلب المدينة الخفّاق . . . خطوتان إلى الأمام تسلمانكم إلى الشارع الخامس ، أعظم شوارع نيويورك بل سيد شوارع العالم كله . . . خطوتان إلى الوراء تسلمانكم إلى برودواى أكبر ملتقى للملاهى وأفتن معرض للأنوار فى العالم أجمع . . . مُوَفَّقٌ حظكم ، إن القنصلية المصرية منكم عن كثب ، وكذلك دار البريد ، و . . .

وكانت يدى أثناء الحديث تعبث بالصحف والكتب ، وتعلقت أناملى ببعض المصورات الخاصة بمعالم المدينة وطرقها ووسائل مواصلاتها . . .

فانثنى الرجل يقول :

— حسن اختيار . . . هذه المصورات ستفتح لك أبواب نيويورك على مصاريعها ، فتجوس خلالها على هدى . . .

وما كدت أنقده الثمن ، حتى سمعت غلام الفندق يقول :

— تفضلوا بالصعود إلى الحجرة .

فحييت صاحب الحانوت ، فودعنى بقوله :

— إنى فى خدمتك كلما دعت الحاجة .

ودخلنا المصعد فى حشد من الناس ، فإذا عاملة المصعد زنجية فى لبوسها الرسمىّ ، تولينا ظهرها ، واقفة دائماً وقفتها الجامدة ، لا تعيرنا أى التفات . . . إنها ليست أكثر من أذن تصغى لمطالب الركاب ، ويد تتحرك إلى باب المصعد فتحا وإغلاقا . . .

وخطونا إلى حجرتنا . . .

هُرُوعٌ إلى الحمام ، لأطيح بتلك اللحية التى بدأت تطلع مع النهار ، وتعيث فى الوجه فساداً . . .

وجعلت أعمل الموسى فى ملل وفتور ، وأنا أهمهم :

ربِّ لِمَ أَنْبَتَّ فى وجوهنا نحن الرجال هذه اللِّحى ؟ أو لِمَ تركتنا نهتدى إلى حَلْقها ؟

وما كدت أتمّ حديث نفسى الضائقة بهذه الدقائق ، حتى أحسست أريج الطيب يفعم أنفى ، فرحت أخالس النظر ، فوجدت الحقيبة النسوية قد تثاءبت ، فأطلّت منها حِقَاق الأدهان والمساحيق ، وقوارير الطيوب والعطور ، تتلوها مناشف الوجه والمناديل والأمشاط ومشابك الشعر وشِبَاكه . . .

فَزِغْت ببصرى ، وعدت أتابع الحلق فى همة ورضا ، وأنا أغمغم :

— حَمْدَكَ اللهم على ما قسمتَ لنا . . . إنك بنا نحن الرجال رءوف رحيم !

ولم تمض غير لحظات ، حتى كنت قد فرغت من مهمتى ، وبدأت أنتظر إقفال حقيبة العطور والمساحيق ، إعلاناً لانتهاء مهمتها . . . ولكن بضع نظرات خاطفة أفهمتنى أن الأمر ما يزال يتطلب مديداً من الوقت . . .

إذن فلأشغل وقتى بشىء . . .

لم لا أبدأ ارتياد المكان الذى حللت فيه !

وقمت أجول فى الحجرتين الرشيقتين اللتين أعدتا لنزولنا . . . كل شى أراه حولى يشعر بتوفير الراحة فى سذاجة وبساطة ويسر ، راحة ترتفع عن كلفة التنميق والزخرف .

وأخذت يدى تتحسس الأثاث ، ففتحت أول درج صادفنى فى الخوان المجاور للسرير ، فطالعنى فيه كتاب ضخم فخم أسود الجلد ثمينه . . . وقدرت بادئ الرأى أنى أمام مجموعة من روائع شكسبير ، إنه يماثل طبعات تلك المجموعات . . . وجذبت المجلد ، وفتحته اغتباطاً ، فقرأت :

« جلس يسوع تجاه الخزانة ، ونظر كيف يُلقى الجمع نحاساً فيها ، وكان أغنياء كثيرون يلقون كثيراً ، فجاءت أرملة فقيرة ، وألقت فلسين ، فدعا يسوع تلاميذه ، وقال لهم : الحق أقول لكم ، إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا فى الخزانة ؛ لأن الجميع من فضلهم ألقوا ، وأما هذه فمن إعوازها ألقت كل ما عندها ، كل معيشتها ! . . . »

ليس حديث شكسبير هذا . . . إنه حديث من وحى السماء ! . . . إن فلسفة شكسبير على حكمتها وعمقها وروعتها لتتضاءل أمام هذه الكلمات الساذجة التى يستمد منها الصغير والكبير نقاء السريرة ويقظة الضمير وطمأنينة الوجدان . . . ما زال حديث السماء على تطاول الزمن وترادف الحقب وتطور العقول هو صاحب السلطان الأول على المشاعر والنفوس . . . لطالما سمعنا فلاسفة الفكر ينادون بأن العقيدة الدينية على وشك الانهيار ، بل إنها لم يعد لها من سطوة وجاه ، ولكننا لا نلبث أن تواجهنا حقائق تسخر من هذا الزعم الموهوم . . . إن العقيدة مثلها كمثل كرة المطاط إذا قذفت بها ورأيتها جادة فى هويها إلى الأرض لم تحسب لها من رجوع ، ولكنك لا تعتم أن تراها قد وثبت إليك فى عنفوانها أقوى مما كانت قبل . . . لو مُنيت مدنيتنا بالزوال ، وهلكت بهلاكها روائع الشعراء وحكم الفلاسفة وعبقريات العلماء ، لألفيت العقيدة الدينية تكمن فى النفس البشرية كمون الحياة فى الحب النابت !

كفى ثرثرة أيها الإنسان المتعالى بماديته ، المغرور بعلمه . . . ألا فاشدد لسانك إلى حلقك ، وأقصر عن التشدق والمباهاة . . . إنك أنت أنت ، ولن تتغير أبد الدهر ، سواء أخفتك المغاور والكهوف أم سمت بك نواطح السحاب تظن أنك مزاحم بشعافها قوائم عرش الله فى ملئه الأعلى ! . . . ما زلت

فى حاجة إلى كلمة ساذجة تزخر فيها عناصر الأمل والطمأنينة والرضا لتردّ عنك العواصف من حيرة العقل وجفاف النفس وظلمة الحياة ! . . .

وأعدتُ الإنجيل إلى مستقره ، وعدت أتابع جولتى ، فرأيت لافتة من الورق المقوّى خصصت لتعلق على أبواب الحجر عند الضرورة . وقرأت فيها بحروف واضحة : « من فضلك لا تقلق راحتى » .

ومثلت خاشعاً أمام هذه الرقعة الغالية . . . إنها لتنيلك ما تنشد من راحة وهدوء فى ركنك الصغير . . . إذا حرستك هذه اللافتة على باب حجرتك ، فلن يجرؤ على أن يطرق بابك احد ، وإنك لآمن فى مستقرك تنعم بما تريد من خلوة وسكون .

هذه آية صغيرة تكشف لك جانباً كبيراً من عقلية الأمريكىّ الدقيق . تكشف لك ما يعانيه المرء فى هذا البلد من جهد وكدّ وحَمْلٍ على الأعصاب ، فهو فى حاجة إلى الراحة يتشبث بها ما وسعه التشبث ، ويلتمس إليها كل السبل ، ويحيطها بالتقدير والإعزاز . . .

لَشدّ ما نحن مفتقرون إلى مثل هذه « اللوافت » . . . نعلقها على أبواب المنازل فى مصر ، أولا أقلّ من أن نعلقها على أبواب « التلفونات » لو كان لها أبواب !

وتناولت اللافتة بيدى ، وأودعتها فى رعاية وعناية مكاناً كريما لأستخرجها منه حين أريد . . .

ورجعت إلى الحمام ، أستطلع أنباء حقيبة العطور والمساحيق . . . أما آن لتلك القوارير والحقاق أن تعود إلى قواعدها ؟

ووقع بصرى بغتة على رقعة صغيرة تحتل الركن المخصص لمواسى الحلاقة ، فقرأت فى الرقعة :

« نرجو أن تقوم بنصيبك فى الإقلال من أخطار المواسى المستعملة . . . لا تقذف بها حيثما اتفق . »

أين ترمى بموساك القديمة ؟ إنها حقا لمشكلة خطيرة على الرغم من مظهرها التافه ، إنه لينجم عنها أعظم الأخطار . . .

وتذكرت بابت ، وهو شخصية خلقها الكاتب الأمريكى سنكلر لويس فى أحد مؤلفاته . . . فقد كان بابت يقف كل صباح أمام المرآة وقفة حيرة

ممضة بعد أن يتم حلق لحيته ، وقفة مُسائل : أين يرمى الموسى ؟ أفى سلة المهملات حيث لايؤمن شرها؟ أم فى ركنٍ واحدةً بعد الأخرى ؛ فتتجمع لديه طائفة كريمة من المواسى الصدئة المثلمة! إنه ليقف هذه الوقفة الحيرى مرة كل يوم ، ولايجد له مخلصا إلا بأن يقذف بالموسى فوق الخزانة ، وليكن من أمرها ما يكون !

وفى هذه الأثناء وضعت الحقيبة أوزارها ، فتهيأنا للانصراف . . . ولم أنس أن أتزوّد بالمصورات أحشو بها جيبى لأستعين بها على ارتياد الطريق . . .

ودخلنا المصعد نسأله الهبوط . . . الزنجية على حالها تستدبرنا ، وهى فى حُلّتها الرسمية : دمية ماثلة ليست أكثر من أذن تصغى ويد تمتد . . . أتراها تمثالا آليًا يتحرك ؟ أم هى حقًا مخلوق من طينة البشر ؟

وغادرنا الفندق نقصد عيادة الطبيب . . . ولكن فى الوقت سعة ، إذن فلا بأس بجولة نلتمس بها متعة وسلوى .

وخطونا إلى الشارع السادس ، فألفينا أنفسنا فى عباب زخّار : الناس فى حركة موصولة ، كلٌّ فى شغل بنفسه ، والسيارات تذهب وتجىء ، مارقة مروق السهام . . .

ومررنا بحانوت يعرض « الفشار » . . . تلك الذُّرَة التى تقْلَى على النار فيخرج قلبها ناصع البياض ، كأنه الزهرة تتفتح لاستقبال الحياة . . . لقد كان هذا الحانوت يعرض « الفشار » عرضاً لطيفاً يجتذب العيون ، فعرجنا عليه كما يعرج الطفل إذا تعلقت عينه بشئ ، وأخذنا منه نصيبنا ، وانصرفنا مشغولة أيدينا ، ووالينا السير نأكل « الفشار » كما يفعل غيرنا لا نشعر بغضاضة ولا استنكاف !

وبعد قليل مررنا بحانوت عظيم ، يفد عليه الناس فوجاً بعد فوج ، ويصدرون عنه فى زحمة تبعث على العجب . أى حانوت هذا ؟ ماعلة ذلك الازدحام عليه ؟ ولكن مالنا نسأل ؟ إن الناس يدخلون فلنكن معهم من الداخلين ، وإن الناس يخرجون فلنكن وراءهم فى الخارجين !

إن روح الطفولة تتحرك بين جوانحنا بما فيها من خفة وتطلع وابتهاج بكل شئ وعدم مبالاة بأى شئ . . . كنت أحس الطفل يستيقظ فى قرارة نفسى ويطل بنزواته وبوادره ، فيبدو أثر ذلك فى نظراتى وخطواتى ، وفى إحساسى بما يدور حولى من مشاهد وأحداث !

وما هى إلا أن خجلت من نفسى : كيف أعود طفلا ؟ وبدأت أراجع النفس وأناقشها الحساب . ولكن نظرة واحدة حولى ، نظرة عاجلة إلى الناس يتدافعون فى غير اكتراث ، كَشَفَتْ لى أنى أحيا بين أطفال . . . أطفال يمرحون ويعابث بعضهم بعضاً !

إن الطفل ليكمن بين نفوسنا سجينا مهما ينضج العقل وتكتمل الرجولة ، وإن هذا السجين ليظل متربصاً خلف أسوار سجنه يرصد الفرصة ويلتمس المنفذ ، حتى إذا واتاه التوفيق حيناً لم تلبث الأسوار أن تنهار فى طرفة عين ، ولم يلبث السجين أن ينطلق من قيوده وعقاله ظافراً شروداً يلهو ويعبث ذات اليمين وذات الشمال !

ووجدنا أنفسنا ندخل الحانوت خلف شخص اخترته رائداً لنا دون إذْن منه ، وجعلنا نتفقد ما حولنا : موائد حافلة ، وأخْوِنَة ممتدّة ، وصحاف عامرة تغدو وتروح ، روائح الأطعمة تداعب الأنوف ، والناس بين جلوس ووقوف لا مشغلة لهم إلا أن يأكلوا ويشربوا . ليس هناك للكلام مجال ، إنما هى أضراس تطحن ، وألسنة تلوك ، وحلوق تزدرد . . . أنكون قد طرقنا وليمة على الأسلوب الأمريكى ؟ أنكون قد دسسنا أنفسنا بين المدعوين تطفلا وفضولا ؟

أين ذلك الذى اخترناه يرود لنا الطريق ، علنا نستبين منه ما غمض ؟ . . . ووقعت عينى عليه وهو يشق لجْمانه مسلكا بين الجموع ، فاستقر أمام خوان رُصّتْ عليه أدوات الطعام ، ولا طعام . . . ورأيته يتناول صينية ويعمرها بما يلزم من أشواك وسكاكين ، فما هى إلا أن وجدتنى أحذو حذوه . . . وقَفَوْنا أثَرَه ، فقادنا إلى خوان مستطيل تزدحم عليه ألوان الأطعمة والأشربة ، بين لحوم وخُضَر وفطائر وحَلْوَيات . . . وخلف الخوان خَدَم يعينون الطالبين على الظفر بما يشتهون .

حقا إنها لوليمة فاخرة . ولكن أية وليمة هذه ؟ وما خَطْبها ؟ . . . ورأينا الرجل ينتقى ماراقه مما هو معروض ، يرصّه على الصينية ويسارع إلى الانصراف ، فلم نعتم أن نفعل كما فعل ، وأن ننتقى لأنفسنا ما انتقى لنفسه من الألوان ، لا ننقص منها ولا نزيد عنها دون إرادة أو تفكير !

وهرعنا فى أثره بصينيتنا نجلس منه على مقربة ، فإذا هو ماض مجدٌّ فى

التهام طعامه ، كأن وراءه من يتعجّله ، أو كأنه يخشى فوات شئ ، فمضينا نلتهم حظنا من الطعام كشأنه سواء بسواء !

ونهض الرجل فنهضنا ، وخطا إلى الباب فخطونا . . . وهناك فى ركن خاص انثنى الرجل يُلقى بضع قطع من النقود ، فانثنينا نلقى مثلها ، ودفع الباب يفتحه ليخرج فكنا وراءه تابعين !

وهنا وقفنا . . . لقد انتهت مهمتك أيها الرائد الكريم ، صَحِبَتْكَ السلامة ، وشكراً لك على أن أرحتنا من متاعب الحيرة والارتباك فى سُوق البطون !

وسَمَوْتُ بعينى إلى جبين الحانوت ، فقرأت : « كافيتريا » .

أنكون قد دخلنا دون أن ندرى أحد تلك المطاعم الشعبية المشهورة التى لايخلو منها رجاً من أرجاء نيويورك ؟ تلك التى يطرقها الآلاف من الأهلين فى كل ساعة من نهار ليصيبوا طعاماً طيباً بثمن مقبول لا يزعج الجيوب ؟

لقد أَنْسَتنا سُوقُ البطون موعد الطبيب ، فلنعجَلْ إليه . . .

وحثثنا الخُطا ، مخترقين الشارع السادس إلى الخامس ، نساير ذلك الخِضَمَّ العظيم ، ذلك الطوفان العميم ، تلك الجموع المتدفقة من الناس ، فسرعان ماوجدنا أنفسنا تلفّنا أمواجه ، وتقذف بنا إلى الأمام . . . ليس لنا طاقة بمناوأة هذا التيار الجارف ، لقد أصبحنا قطرة ضئيلة فى عُباب متلاطم ، فلا حيلة لنا إلا أن نندمج فيه ، وأن نترك أشخاصنا تفنى فى مُزْدَحِمِه . . .

كنت وأنا أتحرك فى مسيرى حركاتى الآلية أتطلع فيما يحيط بى من بَشر وجماد ، فكأنما اختلط الجماد بالبشر ، ليس إلى التمييز بينهما من سبيل !

إنها قوالب ، قوالب تتحرك فى الطريق بلا روح ولا حس ، وقوالب أخرى قائم بعضها فوق بعض . . . حجارة تتوالى متحركة ، وأخرى تتراصّ متعالية !

يالله من أمر هذه القوالب ! . . .

وويل للإنسانية من طابع تلك الحضارة التى تقوم على أساس من المادة كله صلابة وجفاف ! . . .

إنى لأخشى أن تكون القلوب البشرية قد غَدَتْ هى الأخرى قوالب لا تنطوى على عاطفة ولا يصدر عنها نبض ولا خفوق !

وتنبهت إلى أننا نتابع السير ، لا ندرى إلى أية وِجْهَةٍ نحن ماضون .

والطبيب ؟ . . .

واجتهدنا أن ننتزع أنفسنا من بين تلك القوالب المرصوصة ، ثم انتحينا ناحية من الطريق ، واستخرجت ماحواه جيبى من المصورات والرسوم ، أستهديها وسيلة الوصول إلى دار الطبيب . . . إن المصورات لتتحدث حديثاً مستفيضاً عن مركبات الترام والسيارات الحافلة ، وعن القطارات التى تسرب فى باطن الأرض أو تجرى على معابر الجوّ . . . ووقفت فاضل وامايز : ماذا أركب ؟ وطالت بى المفاضلة ، وإذا بعينىّ تزيغان ، وتتراقص أمامهما الخطوط والكلمات . . . ولكنى ما لبثت أن أحسست بنفسى أندفع داخل سيارة أجرة ، فما إن ثُبْتُ إلى وعيى ، حتى ارتفع صوتى بعنوان الطبيب ! علم به السائق . . . وتسللت المصورات إلى جيبى واحدة إثر الأخرى تخفى عن الضوء خزيها وخيبة أملها فى أن يكون لمشورتها مَقام !

ودلفنا بالسيارة إلى بارك أفنيو . . .

إن العظمة والروعة لتتجليان بحق فى ذلك الشارع العجيب . إنه لخليق بأن يحمل ذلك الاسم الذى أطلقوه عليه : « شارع الأرستقراطيين » لو كان للأرستقراطية معنى فى معاجم الأمريكيين . . . شقة فسيحة طويلة لايحدها الطرف ، تنبسط فى تنسيق وتنميق ، وتمتاز بالدقة فى الهندسة والرسم ، كأنما قيست فيها الأبعاد والمسافات بالسنتى والملى . . . يشقها مايسمونه « الحديقة » وما هى إلا بساط من سندس طرزت حواشيه بأشتات من شجيرات . . . أما شواهق هذا الشارع العظيم فإنك حين تنظر إليها تحس بأنها وإن كانت تماثل نواطح السحاب فهى تبدو هنا أجل مظهراً وآنق زخرفا وأبهى . . . إن السماء فى هـذا الشارع الوسيع لتجد فرجة رحيبة تطل منها علينا وتبادلنا التحية فى غير ضيق . . . وهذه الأسراب المتكاتفة من السيارات يلاحق بعضها بعضاً كأنها حلبة سباق . . . وهذه المصابيح الملوّنة المتكاثرة على مَدِّ البصر ، هى حَرَسُ الطريق وشرطة المرور ، يتغير لونها تارة فيتحرك الشارع طولا ويسكن عرضاً ، ويتغير لونها تارة أخرى ، فإذا السكون حركة وإذا الحركة سكون . . . إنه لمهرجان رائع من النور والحركة يسوده نظام دقيق فريد يأخذ بمجامع القلوب !

وعرّجنا على شوارع أخرى نقطعها خطفا ، وما هى إلا بضع لحظات حتى

كنا أمام دار الطبيب . فهرع إلينا البوّاب فى حُلته الرسمية الأنيقة يعيننا على النزول ، أو بالأحرى يوهمنا أنه يفعل من أجلنا شيئاً قيماً بالكريم من التقدير . . . وكان على الرغم من شيبته واستبانة الشيخوخة فى تجاعيد بشرته صلب القامة أمرد الوجه خفيف الحركة مشرق القسمات . . . وتقدمنا إلى البهو حيث يقوم فى ركن منه مكتب « السكرتيرة » . . . فاستقبلتنا بابتسامة تقليدية ، وكانت سمحة المحيا فى لبوس أبيض ناصع ، معنية بأناقتها أتم عناية ، حتى إنها لتحرص على أن تزيّن جانب صدرها الأيسر بمنديل يزهو فى حواشيه وَشْيُ الربيع . . . فكأنما المنديل يستمد من نبع قلبها الدفاق نضارة الحياة !

وتبادلنا كلمات فهمتْ هى منها ماذا نريد ، وفهمنا نحن منها أنها من أمر قدومنا على بينة .

أخذنا مقاعدنا بين الزوار : بهو أنيق بهرتنى منه تلك الصور الزيتية التى تزدحم بها الجدران ، وتلك الأنوار الكهربية المسلطة على تلك الصور فى مساترة ولباقة .

أفى عيادة طبيب نحن أم فى متحف فنى ؟

وانصرم الوقت وأنا فى شغل بهذه الروائع أتملاّها فى نشوة واستمتاع .

ثم طُلِبْنا لنصعد ، فواجهتنا بباب الطبقة الأولى « سكرتيرة » فى لَبُوس أبيض ناصع ، يطل من صدرها ذلك المنديل يُوَشِّيه زهر الربيع ، إنها نسخة من « السكرتيرة » الأولى فى كل دقيق من مظهرها وجليل . . . وتراءت لنا فتيات اخَر فى لبوسهن الأبيض ومناديلهن المُزْهرة يغدون ويرحن قائمات بما بين أيديهن من الأعمال . إنهن نسخ متشابهة ، كأنهن جميعا فتاة واحدة يتكرر ظهورها أمام ناظريك . . .

أثمة قوالب أخرى تواجهنا فى تلك الدار الوادعة ؟

تلك هى الظاهرة الواضحة فى الحياة الأمريكية : تشابه وتماثل فيما تراه العيون من صغير وكبير ، صور متكررة لشئ واحد لا تغيير فيه ولا تبديل !

ودخلنا حجرة صغيرة ، وحُشرنا بين زمرة من الناس ، إنها إحدى تلك الحجر الزاخرة بطلاب الصحة . . . وما كدت أقتعد مقعدى ، حتى طالعتنى صورة كبيرة تزحم حائط الحجرة ، وقد سلطت عليها الأنوار تجلوها أروع

جلاء . . . إنها صورة بروميثيوس طريح صخرة عاتية تثقله الأغلال ، وهو يرنو ملتاع النفس جزعاً إلى النسر الجاثم على مقربة منه بمنقاره المعقوف الحاد ، يتوضح فيه سعار الجوع وتَلهّب الظمأ ، وعيناه تتلظّى فيهما شهوة الفتك والشرّ . . . وهذا النسر يتأهب للانقضاض على ذلك الإله المنكود لينهش كبده ، شأنه معه فى كل يوم !

إن روعة الأسطورة اليونانية وما يتدفق فيها من حيوية وجلال ، ليتمثل فى فن هذه الصورة قوىّ الأداء ، صادق التعبير !

لله أنت من فنان أيها الطبيب !

إن المرء ليطمئن إلى مبضعك المتألق دون وجل أو تهيّب . . . لن تكون إلا فنانا فى طبك كما أنت فى ذوقك فنان !

إن المريض الذى يحيا فى عيادة هذا الطبيب وقتاً لينسى أنه فى مثابة علاج ودار استشفاء ، إنه ليتخيل نفسه فى معرض عامر بألوان التحف الفنية التى تَقَرّ بها العيون وتنشرح لها الصدور . . . إن الساعات لتتلو الساعات دون أن يحس المريض للوقت طولا !

أحيلة هى التمستها يا صديقى الطبيب ليغفل المريض عن مرضه ، ويوقظ فى نفسه الأمل وراحة البال ؟ أنت بهذا تضرب المثل الصالح ، وتعطى القدوة الحسنة . . . ألا يفكر غيرك من الأطباء فى ابتكار وسائل أخرى تحيل ذلك الجو القاتم المملوء بالفزع والرهبة جوًّا رخيًّا تشيع فيه نسمات الطمأنينة والثقة بالحياة ؟

وانتقلنا إلى حجرة ثانية : متحف آخر يتألق بما فيه من روائع الصور وباهر الأضواء !

وأخيراً طرقنا محراب الطبيب : حجرة صغيرة أنيقة ، ولكنها على صغرها حوت كل جديد فى فن العلاج الحديث . وبدا أمامنا الطبيب ، صديقنا المنشود : قامة ضئيلة ، ووجه ضامر بعينين تائهتين تشرد نظراتهما هنا وهنالك دون مبالاة ، وظلّ ابتسامة ترفّ على شفتيه ، أكبر الظن أنها كل ما فى جعبته من تحية واحتفاء !

وحوّمت فى الرأس خواطر خاطفة . . . أذلك حقًّا هو بيت القصيد فى رحلتنا إلى العالم الجديد ؟ أهذا هو مناط الرجاء وفَجْر التمنى ؟ أهذا هو الذى من أجله طوينا بساط الريح على جناح العُقَابِ ، لا نبالى صعاب الرحلة ووحشة الاغتراب ؟

وسرعان ما بدأ الطبيب عمله . . . إنه لشحيح بالوقت ، ضنين بالكلام ، مقتصد فى الحركة والإشارة ، يحيط به سرب من فتيات متشابهات ، كل منهن مَنُوطٌ بها عمل خاصّ لا تَعْدُوه ، وإنهن ليَحْزِرْنَ ما يريد الطبيب من وحى نظراته ، فيؤدين عملهن صامتات . . .

وانقضت الزيارة فى هذا الجو الساكن ، حيث لا كلمة تقال إلا بمقدار ، ولا حركة تؤدّى إلا بميزان !

وأحيل أمرنا إلى كبيرة « السكرتيرات » : رداء ناصع ، ومنديل يزهو على الصدر ، وابتسامة تتخايل على الثغر . . . وفى بضع لحظات عرفنا كل شىء ، العلاج : موعده ، مدته ، نفقاته ، سائر ما يتعلق به . . .

وغادرنا مكتب « السكرتيرة » الكبرى ، هابطين إلى ردهة الدار . . .

وبينما نحن ندير الحديث فى شأن العلاج ، تدانَى منّا شخص يطارحنا الكلام بلغة الوطن . . . هذا مصرى آخر رمت به النوى مراميها لمثل ما قدمنا من أجله ، وقد أوشك علاجه أن ينتهى . وفى لمح البصر زالت بيننا الكلفة ، وكأن الود يربطنا به منذ أعوام . . . ألسنا مصريين غريبين ها هنا ؟

« وكل غريب للغريب نسيب » !

واستطرد بنا الحديث إلى نفقات العلاج ، فتبين لنا أن الطبيب لا يسوِّى فى النفقات بين مَرْضَاه ، وإن كان العلاج على نحو سواء . . . وعلمنا أن هذه سنّة جديدة يتبعها كثير من أعلام الطب الأمريكيين . . . إن الطبيب هنالك ليقدر النفقة وفقاً لاعتبارات خاصة بالمريض كما يقول . . .

نظرية أمريكية حقًّا . إنها لنظرية طريفة تبدو عادلة راجحة ، ولكنها فى حقيقتها وجوهرها مرتع خصيب للمداورة والتلاعب من جانب المريض تارة والطبيب تارة أخرى . . . إن توحيد الثمن فى العمل الواحد والسلعة الواحدة ركن من أركان الاقتصاد القانونى ودقة المعاملة فى حضارتنا الحديثة . ولطالما عِيبَ علينا نحن الشرقيين أسلوب المساومة والتفاوت فى ثمن السلعة الواحدة ، وما يحيط بذلك من الألاعيب وضروب الاستغلال والانتهاز للفرص ، حتى لقد كانت السوق الشرقية مضرب المثل عند الغربيين فى فوضى الأثمان ، والتغابن فى البيع والشراء . . . إنى لأخشى على كُبْرى المدائن المتحضرة أن تنقلب بعد حين سوقاً شرقية تسودها فوضى المعاملات تحت ستار بهرج

من النظريات الاجتماعية الطريفة ، ظاهرها فيه العدل والرحمة ، وباطنها من قبله الجور والاعتساف ! . . .

إن حضارة اليوم القائمة على مبادئ إنسانية رفيعة جديرة بالتقدير نراها قد رقّت من بعض جوانبها فإذا بها عرضة للتمزق . ولو استمر الحال على ذلك لأصبح غزوها مطلباً ليس بالعسير ، ولأصبح انهيارها أمراً ليس بالبعيد . . .

زايلنا دار الطبيب . . .

لم نستمتع بعدُ ببهجة الشارع فى نيويورك . . .

إذن بنا إلى الشارع الخامس نجوب أرجاءه ، نروّح عن النفس ، وننأى عن حديث المرض والعلاج . . .

الناس أجمعون فى هذا الشارع يبين عليهم سيماء اليسر والرخاء : أناقة فى الزى وترف فى الملبس ، ورفاهية تفصح عنها المظاهر . . . النساء فى معاطف الفرو الثمان ، السيقان تكسوها غلائل الجوارب الفاخرة . ليس ثمة من ساق عارية . ولكن أى فرق بين الساق العارية والساق المصبوبة فى جورب رقيق النسج نمّام عن دقائق الفتنة والجمال ؟ . . . لا وحدة فى الزى ، ولا مراعاة لمألوف من التقاليد والعادات . إن بعض النساء لا يبالين أن يظهرن فى لبوس الرجال ، متخذات تلك السراويل الشائعة ، كأنهن فى البيوت متنقلات ، أو على الشواطىء متنزهات . . . ثمة طالبات يتخذن هذه السراويل تيسيراً للحركة ومسايرة للنشاط ، وثمة عجائز يتخذنها اجتذابا للأنظار إلى أطلال نضارة عفّت عليها السنون ، أو ستراً لسيقان ألح عليها الضمور والهزال !

وهذه وجهات المتاجر والمخازن . . . إن العبقرية الأمريكية فى الأناقة والتنسيق والتألق لتبدو فى هذه الوجهات بالغة الإبداع . . . إن الكماليات لتنافس الضروريات فى معارض تلك المتاجر ، فتغدو هى ضروريات ليس عنها غنى . . . ولم لا يكون الأمر كذلك ونحن فى عاصمة النعيم والثراء ؟

واسترعت نظرنا وجهة تزهو فى تألقها ، فوقفنا لحظة نتأمل فيما تعرض من ضروب الأحذية ، وما هى إلا أن وجدنا أنفسنا فى داخل المتجر نطلب حذاء راقنا شكله . وبدا حيالنا رجل أنيق حيّانا فى أدب تحية خاطفة ، وسألنا :

— فيم نرغب ؟

إشارة منه إلى ذلك المصعد ، ليبلغنا القسم الذى نجد فيه طلبتنا .

وصعدنا . . .

رجل آخر أنيق يحيينا تحيته الخاطفة ، ويدلنا فى عجلة على المكان المنشود . . . واتجهنا حيث أشار .

أنيق ثالث يرحب بنا على ذلك النحو المعهود .

يا لله من هؤلاء الأنيقين الوجهاء ! . . . كأننا فى قصر سيد غطريف تستقبلنا حاشيته !

وأشار الرجل بيده إلى ناحية قائلا :

— المشترى يتجه يميناً ، والمرافق يتجه إلى اليسار . . .

نخطوت يسرة ، فوجدت نفسى فى زمرة من الرجال يقتعدون مقاعد الانتظار . . . فى ذلك الركن يروض المرء نفسه على فضيلة الصبر والاحتمال !

وجلست أبادل الرفاق نظرات الاستسلام ، والتفتُّ يمنةً ، فإذا بالمشترين طابور كلٌّ ينتظر دوره . . .

وامتد بنا الانتظار ، فنهضت من ركن المرافقين أحاول أن أقتحم منطقة الشراة ، فما أسرع أن بدا الأنيق يعترض طريقى ، ويعيدنى إلى حيث كنت . . . يا عجبا ! . . . ها نحن أولاء فى هذا البلد الذى يوزن فيه الوقت بميزان الذهب ، نرانا أكثر الناس إضاعة لأوقاتهم وأشدهم تفريطاً فيها . . . ولكن ما الحيلة ، ونحن فى متجر عظيم لا تستقيم فيه الأمور وتدق المعاملات إلا بنظام مفروض له مزاياه وله مساوئه الجسام ؟ . . . إن هذا النظام قد جعل شراء زوج من الأحذية يبلغ من التعقيد مبلغاً يزهد مثلى فى احتمال تبعاته ! . . . إنى لأوثر الحفاء على أن أبقى رهينة حزب اليسار ، أشقى بموصول الانتظار ! . . .

وبعد لأى خرجنا من المتجر ، بخُفَّىْ حُنَيْن . . .

وأحسست بأعصابى تتهافتُ . . .

ولم نكد نمشى خطوات حتى شعرنا بوطأة الجوع ، فطرقنا مطعما خلبتنا وجهته : صبغة وردية بهية تزهو تحت الأضواء الألاّقة ، فتكسب المكان جوًّا سحريا . . . ووجدنا أنفسنا قد انتظمنا فى صف طويل . . . وهذا طابور آخر . . . نحن فى بلد القوالب والطوابير ! . . . ذلك البلد الذى يروضنا على فضيلة الصبر والاحتمال . . .

وكنا نتحرك كالآلات ، نخطو إلى الأمام كلما خلا من أول الصف مكان .

وحانت منى التفاتة إلى الخلف ، فإذا بى أشهد طابوراً آخر سرعان ما ائتلف . . . فابتسمت ابتسامة امتزج فيها الإشفاق بالارتياح : إنى لمشفق على أولئك اللاحقين الجياع الذين ينتظرون دورهم البعيد ، وإنى لمرتاح على أية حال لما أصبته من سبق يعفينى من مضّ الانتظار . . .

وظهر أنيق يلقانا بوجهه الطلق ، ويولينا نظرته العَجُول ، وأصدر أمراً فى شأننا ، فتحركنا طوع أمره إلى المائدة التى فرضت علينا لا تفضيل ولا اختيار . . . وبدا سرب من فتيات المطعم يتنقلن بالصحاف بين الموائد خفاف الحركة رشيقات كأنهن ظباء بين الحمائل تنساب . . . وكن فى حلل وردية وميادع ناصعة البياض قصار ، يشهد الله أنها لم تتخذ لتصون ما تحتها من ملبس ، وإنما اتخذت للزينة واختلاب العيون ! . . . إن هذه الظباء ليمثلن فى هذا المطعم فاتحة ألوانه الكريمة . . .

أية حاجة إلى المشهّيات بعد لقائهن ؟

وأقبلنا على الطعام . . . وكانت القاعة على ما فيها من حركة دائبة ، واكتظاظ بالرُّوَّاد ، لا تزعج أحداً بصوت ينكره السمع . كل شئ يسير على نظام دقيق ، إنه نظام الآلة الصّماء ، حتى إن الآكل نفسه ليجرى على أسلوب آلىّ . . . يجب أن تأكل نشيطا ، وأن تخص جلستك للأكل وحده ، حتى تخلى لغيرك المكان . . . إنك لتحس صوت الطابور يهتف بك مُستحثًّا !

وزايلنا المطعم ، فواجهنا الشارع ، وقد اكتسى حلة من مختلف الأنوار ، وتبدّت وِجْهات المخازن والمتاجر فى زخرفها الفتّان . ولكن الوقت مساء ، والأبواب موصدة ، فليس إلا أن نتبادل النظرات قانعين ! . . .

والآن . . . إلى أين ؟

سؤال ألقيناه على أنفسنا ، فكانت الأجوبة شتى متباينة ، ولكننا لم نجد بينها جواباً يُزيِّن لنا أن نعود إلى الفندق ! أنزجّ أنفسنا فى حجرة الفندق تاركين مباهج الليل ويقظة الحياة ؟

وألفينا أقدامنا تدفع بنا إلى برودواى . . .

ورحنا نمخر عبابه المتلاطم : مواكب من الناس تسبح فى فيض زاخر من الأضواء . . . إن برودواى علم من أعلام النور ، بل إنه اسم من أسمائه ومعنى من معانيه . . . إنه الحىّ الذى يجد فيه كل امرئ ما تصبو إليه نفسه

من ضروب الملاهى وألوان التسليات . . . هذه دور اللهو والطرب ، تتخللها مطاعم ومشارب رشيقة فاخرة . . .

لا أثر هنالك لماندعوه « بالقهوات » . . . إن الناس لايجدون وقتاً ينفقونه فى الثرثرة ولغو الحديث ، وإنما يحلون تلك الأماكن ليطفئوا الظمأ ويردّوا الجوع !

وطرقنا مشربا ، أو سمه مطعما ؛ فالمطاعم هى المشارب ، وهذه هى تلك على حدٍّ سواء . . .

رجعة إلى نظام الطوابير . . . حتى للحصول على قدح من شراب !

واحتللنا مائدة ، فجلست أدور بعينى ، فرأيت صفًّا من الروّاد على منضدة الحانِ قد جلسوا أزواجاً ، كل امرئ وصاحبته ، وهما يمزجان المدام ، بمناجاة حب وهيام . . . وخلف هذا الصفّ صفّ آخر من رُوّادٍ ينتظرون دورهم فى الجلوس ، ونصيبهم فى تناول الصهباء ونجوى الغرام ، وهم ينظرون إلى صف الجالسين أمامهم نظرات التعجّل والاستحثاث ! . . .

إن الحب هنا محدود يقاس ويوزن . . . باب الغرام يطرق دون مداورات ومقدمات . . . إن المحب ليقتحمه اقتحاما فيحظى بلبابه ميسور المنال ، خالصاً من هموم الدلال والمطال !

قل لحبيبتك كلمة خاطفة ، وبادلها بسمة خاطفة ، واقتطف من وجنتها قبلة خاطفة ، وأخلِ مكانك لمن خلفك قد أضناه الهوى وضاق بالانتظار !

أين أنت ياعمر ؟ يابن أبى ربيعة ؟ . . . ماذا يكون موقفك من هذا الحان الأمريكى ، مثابة ذلك الحب الخاطف ؟ أ كنت ترضى بمثل تلك الجلسة العجلى ، وقد تعودنا أن نسمع منك فى صبوتك آهات كل آهة منها تتطلب ليلة كاملة ؟

عفا الله عن ذلك الحب الكسول فى دنياك القديمة ، وحيا الله ذلك الغرام الأمريكى العجلان !

حسبنا ذلك الآن من برودواى . . .

وإن لنا إليه لرجعة بل رجعات . . .

محمود تيمور